التجسس والجواسيس

صفحة مطوية من صفحات الحرب الكبرى

لوليم لوكيو

(بقية المنشور في الجزء السابق)

والذين لم يتح لهم ان يلقوني في ذلك اليوم ليعبّروا عن شكرهم لي شفاهاً عبّروا عنهُ كتابة . وكان بين الكتب التي جاءتني كتاب من اللورد روبرتس هذه ترجمتهُ : —

« قصر بورتلند رقم ٤٧ ، لندن « في ٢٢ اغسطس ١٩٠٦

« عزيزي المستر لوكيو

« أعيد اليك بمزيد الشكر الاوراق الملحقة بكتابك المؤرّخ في ٢ اغسطس الجاري

« يظهر لي ان الخطّة الخيالية قد استوفت قسطها من التدبُّر والتأمُّل فجاءت قرينة الصواب وغاية في الاتقان والإحكام . لانها تمثّل الخطر العظيم الذي نستهدف لهُ ، اذا انتهزت احدى دول اوربا (بريد المانيا) فرصة غياب اسطولنا او ضعفهُ الموقّت وانزلت جيشها على سواحل بلادنا

« ان الاحتفاظ بعدد كاف من الجنود الحسنة التدريب والتنظيم والجيش الاحتياطي يطلق للاسطول عنان الهجوم وحماية تجارتنا البحرية ويمكّننا من ارسال النجدات الى مستعمراتنا والذود عن بيضة الامبراطورية البريطانية وصيانة مصالحها

« فأنمي لك والحالة هذه نجاحاً تامًّا في سعيك المتواصل لإقناع اهل هذه البلاد بان حراسة امبراطورية لا تغيب الشمس عن املاكها تقتضي قوة دفاع مطابقة لعظمتها وسعتها وغزارة منافعها على اختلاف انواعها . وانهم إن لم يبذلوا ما عزّ وهان في هذا السبيل خسروا ما ربحهُ اجدادهم « المخلص روبرتس »

ولم يقلّ مجموع كتُب التهنئة التي وردت عليَّ من اعاظم الامة واكابرها عن الثلثين حتى خيّل اليَّ ان الكلترة كادت تستيقظ من سبات الغفلة والاهمال !

ولم البث بعد ذلك ان دُعيتُ مع اللورد روبرتس لحضور اجتماع انعقد بسعي غرفة لندن التجارية للنظر في الدفاع الوطني وقد رأسهُ محافظ لندن . وكان الفيلد مارشال

روبرتس قد صرّح في مجلس الاعيان بأنّ وسائل الدفاع عندنا ، من جيوش واساطيل هي الآن ، كما كانت سنة ١٨٩٩ ، ناقصة وغير مستوفية شروط التأهب والاستعداد. قال:—

« فساري ما تبتغيه الامة عموماً والذين يضعون مصالحها نصب اعينهم خصوصاً ، السلم والامان ، لا من حرب فعلية فقط بل من المخاوف والاراجيف . ويملأ الاسف القول ان اماناً كهذا لا يمكن تحقيقهُ بسياسة المواددة والمسالمة كما يزعم بعضنا ويحاولون حملنا على تصديق زعمهم هذا . فالوقاية الحقيقية تتم بان يكون جيشنا المسلح دائماً على قدم الاستعداد لدفع الطوارىء حتى لا يكون في مصلحة احدى الدول ان تغامر بشهر الحرب علينا »

وبهذه الخطبة البليغة المفعمة بروح الحماسة والحمية حثهم على وجوب ايقاظ الامة من غفلتها لتدارك الخطر المحدق بها . واصابت الديلي ميل بنشر قصة « الغزوة » نجاحاً كبيراً من حيث زيادة سعة الانتشار وسرعة الرواج . واعانت مطالعتها على هياج الخواطر وتنبيه الافكار . وتعرّض لها غير واحد من جهابذة النقد فكدموا كلهم في غير مكدم اذ لم يجدوا لانتقاد خطة الهجوم الخيالية من مطمع ولا مغمز لانها مرسومة يد ابرع رجل في وضع الخطط الحربية . وذاع صيتها خارج انكلترة واستطارت شهرتها في كل مكان حتى انها ترجمت الى سبع وعشرين لغة . وسرّني جداً اني نلتُ مرادي من تنبيه الامة البريطانية وغيرها من الامم الى الصداقة المزيفة التي يدّعيها القيصر زوراً وبهتاناً

ورأى اصدقائي اننا مناقون الى الحرب وان النجاح الذي نلتهُ في تصنيف القصة بلغ اقصى مداهُ لكنّ نتيجتها جاءت على خلاف المراد

فقد طالعها اهل العالم كافة والموا غاية الالمام بمشاهد غزو سواحلنا والمعارك الدموية التي دارت رحاها في اسكس ولانكاشير ويوركشير وزحف العدوّ على لندن . وكانوا عند الفراغ من المطالعة يطوون الكتاب ويضعونهُ جانباً ومع تسليمهم بان القصة ابتكار خياليّ يهيج الخواطر ويستفزّ الافكار ، يبدّونني جول فرن الثاني !

واتفق بعد ذلك اني بينما كنتُ في نابولي اخذت كتاباً من وكيلي في لندن يقول فيه ان رجلاً المانيًّا زارهُ وعرض ان يشتري حق ترجمة القصة الى اللغة الالمانية . فاجبتهُ تلغرافيًّا بالقبول مهنئاً نفسي بان اعداءنا انفسهم سوف يتحققون ان هجومهم علينا لن يقترن بسوى الخيبة والخسارة

وما كان اعظم ارتماضي واضطرابي عند ما اطلعت ، بعد ستة اشهر ، على ترجمة قصة « الغزوة » باللغة الالمانية ، مزدانة بالرسوم والأشكال ومختومة بنتيجة تضمن الالمانية نجاح هجومها علينا وفيها صور غزو الجيش الالماني لندن واعماله في السلب والنهب !

وشرٌّ من هذا وذاك انهم عُنوا بتجنيد هذه النسخة وتذهيبها وتوزيعها جوائز على تلاميذ مدارسهم !

فأخذ مني الغيظ والحنق كلَّ مأخذ ومن فوري ذهبت الى مكتب جريدة الديلي ميل ودخلتُ على اللورد نورثكلف وقلتُ لهُ وشرر الاستياء والامتعاض يتطاير من عينيَّ : —

« إني بموجب الشريعة الانكليزية انكليزي واحبُّ انكلترة ولكنيَّ من ابٍ فرنسيٍّ فانا فرنسيٌّ أيضاً واشكر الله على ذلك ! »

وكان مقطوراً على الحلم وطول الاناة فغضَّ النظر عن هذه الكلمات الفظَّة الجافَّة وتفضَّاني بالصبر وسعة الصدر ودعاني لقضاء يوم الاحد معهُ في قصره خارج لندن

واتضح لي بعد التأمل اننا لم نحرز تقدماً جديداً في سبيل استفزاز الجمهور . ولولا اللورد روبرتس واللورد نورثكلف والمستر لويد جورج واللورد نشارلس برسفورد وغيرهم من اصدقائي الاوفياء لكدت اعدل عما عقدت عزمي عليهِ ووجهت كل التفاتي اليهِ ولكن بعد ما أشتُهر عن ساعد الجد في سبيل غرض إيًّا كان واضح ادراكهُ نصب عينيَّ لا يسهل عليَّ ان اتخلى عنهُ وارضى من الغنيمة بالاياب . والمبلغ الباهظ الذي تناولتهُ على تأليف قصة « الغزوة » لم البث ان انفقتهُ على اسفاري في اوربا كجاسوس او مخبر سريٍّ لانكلترة

انفقت مالي بسمة وسرور غير مكترث لشيء سوى تسقط الأخبار التي يهمُّ بريطانيا العظمى الوقوف عليها . فكنتُ الرجل الانكليزيَّ الوحيد الذي تمكَّن من الدخول الى مصنع « ارارديت » في « دسلدورف » حيث كانوا يصنعون المدافع الضخمة البعيدة المرمى . دخلتهُ متنكراً وقد خفيت معرفتي عليهم لاني بسطتُ يدي في الرشوة التي تعمي العيون وتقطع الالسنة

وجميع الأنباء السرية التي تسقطها في سفراتي ومغامراتي أودعت سجلات وزارة الحربية ولم تلقَ من يأبهُ لها او يعنى بشأنها لأن اللورد روبرتس كان قد استقال وباستقالته أهملت الحكومة هذا الموضوع الخطير وضربت عنهُ صفحاً

او ليس من الغرابة بمكان — كما جاء في مقالة لشرتها الديلي ميل مؤخراً لبعض الكتَّاب — ان قصة « الغزوة » المكتوبة قبل الحرب الكبرى بخمس سنين ، لم تقتصر على تقدير معركة جوتلند البحرية بل وصفت كثيراً من المدرَّعات التي غرقت فيها وانباء غرقها وكذلك قدرت إطلاق المدافع على سكاربورو وذكرت بعض البيوت التي اصابتها قذائف المدافع باسمائها !

وفي ذات يوم من شهر سبتمبر سنة ١٩١٠ جاءتني بطاقة من الجنرال السر الفرد ترز يقول فيها انهُ شديد الاعجاب بحبي لوطني ويدعوني لتناول العشاء عنده . فقبلت الدعوة وذهبت ولما وصلت دهشت اذ وجدت بين المدعوين سفير المانيا ومستشار السفارة والملحق العسكريّ والملحق البحريّ فيها وعقائلهم . وبعد تناول العشاء جلست لمسامرة الملحق العسكري فوجه الحديث نحو حملتي القلمية على المانيا وبدعوة منهُ وافيتهُ الى ناديه في اليوم التالي لتناول الغداء معهُ فأكرم وفادتي وبالغ في الاحتفاء بي. وفي اثناء الحديث اشار الى مساعيّ المبذولة في سبيل الانذار والتحذير وقال ضاحكا : « لن تقع حرب بين بلادي وبلادك . فمن الحماقة ان تحاول يا عزيزي المستر لوكيو تحذير شعبك من خطر ليس لهين وجوده من اثر . وبهذه الترهات والاراجيف أسأتَ الى نفسك وسودت صحيفة شهرتك. فلماذا لا تقلع عن هذا الغي ؟ لا نروم مخاصمة امتك ولسنا نجهل انك تعمل ما تظنهُ واجباً عليك »

« لستُ اظنهُ بل اراهُ بعين اليقين واجباً عليّ »

« إنك ككاتب يهمُّك ان تنشر ما يصبو القرّاء الى مطالعته وهذا الغرض يسهل عليك ادراكه بنشر مايكون في مصلحة المانيا . ونحن ان فعلت ذلك نعرف لك هذا الجميل العظيم ونحسن جزاءك » . فكدتُ اتميَّز من شدّة الاستياء واسمعتُهُ كلاماً احدَّ من طعن السنان وقفلتُ راجماً على الأثر . وقد ذكرتُ هذا مثالاً للطرق التي كانت ادارة الشرطة السريَّة في المانيا تستخدمها بواسطة جواسيسها لكمّ فمي وكسر قلمي

ومن امثلة ذلك ان شركة نور دتشلر لويد في بريمن عرضت عليّ السفر حول الارض في احدى بواخرها مجاناً فازور المستعمرات الالمانية واصف كل ما اراهُ فيها . ومنها ان اقطاب السياسة الالمانيين في الاستانة وبلغراد وغيرها من عواصم ممالك البلقان كانوا على الدوام يالفون في تملقي وملاطفتي ويلمحون الى رغبتهم في شراء سكوتي بايّ ثمن كان هكذا كانوا في يقظة تامة . واما نحن فكنا في اسفل دركات الغفلة والتهاون

ومن ادلة غفلتنا اني كنتُ ذات يوم من شهر اغسطس سنة ١٩١٣ — قبل الحرب بسنة — اجوّل في شارع قرية في سوئيورو ومعي آلة التصوير ما يعنُّ لي من المناظر والمشاهد . واذا بخمسة وعشرين ضابطاً المانيًّا في ملابس غير رسمية يخترقون سوئيورو راكبين ويتكلمون جهاراً باللغة الالمانية ، باذلين جهدهم في الاستطلاع والاستشراف لمعرفة المواقع ومستعينين بالصور الفوتوغرافية على تعيين الاماكن التي ينصبون فيها المدافع

اي يستعدّون لغارة شعواء يشنونها على انكلترة . وفي تلك الليلة عادوا ادراجهم الى لندن حيث أدب لهم السفير الالماني مأدبة فخرة في «كارلتن هوس»

ولا يخفى ما في عملهم هذا من التحدي علنا والانتهاك لحرمة بلادنا. وكنتُ قد تمكّنتُ من اخذ صورهم وهم يتشرفون ويستطلعون. ومن فوري ذهبتُ بها الى اللورد رويرتس وأريتهُ اياها فثار ثائر غيظهِ واستيائهِ من هذا العمل الفظيع والحّ عليَّ ان اكتب عنهُ في الصحف . فكتبتُ ولكنَّ الصحف على بكرة ابيها ابت أن تنشر شيئاً عن هذا الموضوع وكتب اليَّ واحدٌ من اربابها يقول لي اني مأفون مجنون !

وقد تبين بالادلة المقنعة ان الالمان تعمدوا غزو بلادنا الشرقية والجنوبية على حين غفلة . وحاولتُ غير مرة ، انا واللورد رويرتس واللورد نورثكلف تحذير الجمهور فلم يعرنا احد اذناً صاغية . وبعد طول التقصّي والتحرّي اتضح لي ان معظم الفنادق والمنازل على الساحل الشرقي من هَل الى نوكستون ، مديروها او اصحابها رجال المانيون . وكلما عرضت حانة للايجار تقدم لها طالب الماني واعلن استعدادهُ لقبول اية شروط يشترطها المالك . وقلما خلا مكتب تلغراف مهم من وجود الماني مقيم في جواره ليقتحمهُ في الوقت المعيّن ويعطّل آلاته

واني أُعيد ما سبقت نقلتهُ من قبل ان جميع الامور التي ذكرتها حقائق راهنة واني اتحدّى كلَّ من تحدّثهُ نفسهُ ان يتعرض لها بطعنٍ او تفنيد ولم آسف على شيء من المشقات والنفقات الباهظة التي كابدتها وتكلفتها في سبيل الحصول عليها لأني بذلت هذا كلهُ بملءُ الرضى والمسرة مشفوعاً اليهِ بالمحبة الوطنية للبلاد التي فيها وُلدتُ وتحت سمائها ديبت وشيبت

ومع اننا الآن راتعون في سلام يرفرف علينا بذيولهِ وحواشيهِ ارى في الجو علامات تنذر بنشوب حرب اخرى في مستقبل قريب غير بعيد والكتابة على الحائط ظاهرة امام الذين لهم عيون تبصر ويستطيعون قراءة الكلام وفهم معناهُ ! وفي العالم كلهِ سعي حثيث باشدّ القوى واوسع الخطى لايقاد حرب اعظم تنكيلاً وتدميراً من الحرب الكبرى الاخيرة — بمركبات هوائية تمطر العباد والبلاد بقذائف التقتيل وغازات سامة وقنابل محشوة بجراثيم الامراض الفتاكة والاوبئة الوبيلة ومواد سريعة الانفجار تفاجئ الارض وسكانها بما لم يسبق لهُ قط نظير من دواهي الاجتياح والاستئصال . وعلى من تشهر هذه الحرب ؟ على بريطانيا العظمى بلا اقل ارتياب

لم اتاكّد اقصينا العدو عن بلادنا ولكنهُ عاد اليها راسخ العزم شديد الحول .

وادارة النجدة السرية او التجسس في المانيا واسعة الانتشار ولها فروع في سائر الاقطار ولاحدّ لمكايدها وطرق حتلها وخداعها. وهي لا تعف ولا تتورع من تحليل محرم او تدنيس مقدس. وجميع الاحتياطات التي تتخذها سراً لدفع الطوارىء والتأهبات التي تجريها في الخفاء لاتقاء المفاجآت من سفن هوائية وبحرية على اختلاف انواعها واشكالها هذه كلها يقف الالمان في برلين على تفاصيلها وصورها في اقل من اسبوع وتراهم على الدوام يسخرون من فتورنا وغفلتنا ويباهون بانهم يعرفون عن احوالنا السياسية والعسكرية والاجتماعية اكثر جداً مما نعرفهُ نحن. وفي سجلات ادارة الشرطة السرية في برلين الوف من التقارير المطولة المجموعة في اثناء السنين العشرة الاخيرة عن حياة عظماء انكلترا واحوالهم ووصف دورهم وتصورهم التي يطلون انفسهم بنزول جيوشهم فيها يوماً من الايام. وعلاوة على العيون والرقباء الموفدين من قبل ادارة التجسس لهم بيننا طائفة كبيرة من المستوطنين الضاربين باكبر سهم من المكر والدهاء. وهم يدأبون في التدرّب على تسقّط الاخبار واستراق الاسرار ونقلها الى المانيا بطرق خفية مختلفة

وللامة الالمانية في الوقت الحاضر امل كبير بانها تتمكن من مفاجأة لندن والسواحل بضربة قاضية، لا بالهجوم البحري، بل بجيش لجب يقتحم سواحلنا بعد ما تكون سفن الهواء قد امطرتنا ناراً ذات شرر لا تبقي على اساطيلنا وجيوشنا ولا تذر. وهذا اقولهُ عن علم صحيح واختبار اكيد فلا سبيل على الاطلاق، لحملي على العدول عنهُ باحدى الطرق. لاني لم انسَ قول المستر مكّنا لنا ان جميع الجواسيس الالمانيين في بلادنا « مُقفَل عليهم » وبعد اسبوع قبضوا على عدد كبير منهم وكان نصيب اثنين منهم الموت شنقاً. ولن انسى ما لقيتهُ من الغمّ على اثر تصريحي بهذه الحقيقة في خطبة القيتها في بوكستن. وبعد هذه الخطبة صدر الامر الى جميع صحف لندن الصباحية والمسائية بعدم الاشارة اليها! ولما زرت المستر تشارلس بالمر صاحب جريدة « الغلوب » اراني هذا الامر وقال ضاحكاً:

« اليس هذا الامر بنفسهِ يؤيد ادّعاءنا ان بعض جهات الاختصاص الواقعة تحت سلطة يد المانيا الخفية تخاف اشدّ الخوف من هتك لاستار اسرارها بلا شفقة ولا رحمة؟»

وفي الختام اقول اني عملت بما املتهُ عليَّ محبة الوطن وبذلتُ جهدي متفانياً في خدمة بلادي وان تكن هذه الخدمة لم تأتِ لسوء الحظ بالفائدة المبتغاة

ترجمة: اسعد خليل داغر